الخيـــال الطارق

الدكتور طه حسين

أقبل صاحبي وجه النهار مرتاعا حائل اللون ، شاحب الوجه ، حائر الطرف ، طائر اللب ، كأنما ألم به طائف من الجن فروعه ترويعا ، وأخرجه عن دلك الطور الهادىء الرزين الذي كنت اعرفه منه اذا لقيته فتحدثت اليه ، واستمعت لاحاديثه المعلمة العذبة الخصبة .

أقبل مرتاعا لا يكاد يبين اذا تحدث او هم بالحديث ، بل لا يكاد يستقر في مجلس ، بل لا يكاد يمسك جسمه من رعدة كانت تلم به من حين الى حين فتهزه هزا عنيفا ، وتذكر بقول ذلك الشاعر القديم وانى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

وأشهد لقد انفقت كثيرا من الجهد ، واصطنعت فنونا من الحيلة ، لارده الى ما الفت فيه من دعة وأمن وهدوء ، ولقد افقدت في تلك الساعة بعض هؤلاء الشيوخ الذين يتلون العزائم والرقى ، بعد أن أخفقت أو كدت اخفق فيما كنت احاول من رده الى الوقار والصواب . ولكني ظفرت آخر الامر بما كنت احاول ، واستطعت أن أتحدث الى صاحبي ، وأن اسأله عن مصدر هذا الاضطراب العنيف الذي اصابه وما عرفته عرضة لاضطراب يصيب العقل أو يصيب الجسم . قال وهو ذاهل أو كالذاهل : إثم هذا على ابى العلاء ايها الصديق ، فلولا انى نظرت في كتاب من كتبه آخر الليل ، لأذود به هذا الارق الذي الح على الحاحا لما أصابني ما ترى ، بل لما أصابني مالم تر من تلك الأهوال التي ألمت بي ، واصطلحت على حتى نفرتني من داري وأزعجتني عن أهلي ، ودفعتني اليك في هذه الساعة التي لم أتعود أن اسعى فيها اليك . وثق بانى قد خرجت من داري معتزما ألا أعود اليها ، وقد أمرت أهلي أن يلتمسوا لنا دارا أخرى ، وأزمعت الرحلة عن القاهرة اياما ، حتى اذا تم لهم ما اريد من التحول عن هذه الدار الموبوءة ، عدت اليهم في دارنا الجديدة ، لعلي أن أجد فيها ما انا في حاجة اليه من الدعة وراحة البال . قلت ما أراك الا مريضا تحمل مرضك على أبي العلاء وتكلفه من ذلك ما لم يقترف ، وتكلف أهلك من آثار هذا المرض شططا . ومع انى لم أعرف بعد هذه الأهوال التي ألمت بك فازعجتك عن دارك ودفعتك الى ما تحاول من فراق القاهرة . فلست أرى بأسا بهذا الرحيل فقد طال مقامك في مدينتنا ، وقد احتملت من الجهد والعناء في عملك ما يضنى الأصحاء الاقوياء ، فكيف برجل عليل ضئيل مثلك ، فارحل مصاحبا ولكن حدثني عما ألم بك من الهول ؟ قال مصدره رسالة الغفران ياسيدى ، قلت أبا العلاء لم يكتب رسالة الغفران ، قلت لا تقل هذا ولا تكن أثرا ، فان لغيرك في رسالة الغفران لذة ومتاعا ، واذا كانت قد سلطت عليك الهول الذي لم أعرفه بعد ، فانها قد أتاحت لقوم آخرين في الشرق والغرب من الشهرة وبعد الصوت ما لم يسلط عليهم هولا من الأهوال ، ولم يغرهم خطبا من الخطوب . ولكن هات حديثك . قال : ما أشك في ان أبا العلاء كان مجنونا حين كتب هـــذه الرسالة . قلت رب جنون خير من العقل ، ولكن هات حديثك . قال : أتذكر هذا السخف الذي أغرق فيه إغراقا حين ذكر هذين البيتين القديمين من شعر النمر بن تولب :

ألم يصحبني وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهي عسلا مصفى اذا شاءت وحواري بسمن

قلت هذا من خير ما في الرسالة ، وأى بأس عليه من أن يفترض أن الشاعر قـــد وضع مكان حصن في البيت الأول اسما آخر كجزء أو حفص أو عمرو ، ثم يلائم بين هذا الاسم وبين القافية في البيت الثاني ، فهذا نوع من العبث المباح الذي لا يسوء أحداً ، وهو مع ذلك يدرب الذاكرة ويظهر شيئا من المقدرة اللغوية التي يحرص العلماء والأدباء على اظهارها . قال أنت الذي يزعم أن هذا العبث لا يسوء أحداً ، وما رأيك في أنه قد سادني وجشمني ما رأيت وما لم تر من الاهوال والخطوب . فقد أراد سوء الحظ أن أنظر في هذا الكتاب ، وان أقف عند هذا العبث ، فأفكر في هذه الخيالات التي كانت تطرق المحبـــين والشعراء منهم بنوع خاص ، والتي كانت اذا طرقت هؤلاء الشعراء اطلقتهم بما تعرف وما لا تعرف من رائع الشعر وبارع الكلام . وأغرقت في هذا التفكير وجعلت استعين بالذاكرة على استحضار شيء من الشعر القديم الذي قاله الشعراء في الخيال الطارق والطيف الملم . ثم جعلت اسخر من ابي العلاء ومن جفاء طبعه وخشونة مزاجه ، وجعلت ارثي لأم حصن هذه التي عبث الشاعر بها هذا العبث

فلم يترك اسمها حيث وضعه النمر بن تولب ، وانما حذفه واخذ يضع مكانه اسماء اخرى بعدد حروف المعجم ، ولو أنه كان رقيق القلب دقيق الحس ممتاز الشعور رقيقا بالغانيات لما ازعج ام حصن عن مكانها ، ولما اقلقها عن موضعها ، ولكنه رجل غليظ لا علم له بالحب ، ولا حـــظ له من الرقة ، ولا معرفة له بحسن معاشرة النساء .

وانى لفى ذلك وإذا أنا احس كأن الأرض تدور تحت قدمى ، وكأن كل شىء يضطرب من حولى ، ولا أكاد التفت الى ذلك وافكر فيه حتى يبدأ من حولى كل شىء ، واذا شخص جبل قد قام منى غير بعيد ، وهو ينظر الى نظرة عطف ، وعلى وجهه غشاء من كآبة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة كأنها ابتسامة الرضى ، ولكنى لا أعرف شيئا أصدق منها تصويرا للحزن والاسى ، وتمثيلا للوعة والحسرة ، ولست أدرى كيف لم يرعنى مقام هذا الشخص الجميل ، فلم أظهر فزعا ولا اضطرابا ، وانما انست اليه وحققت النظر فيه فتبينت فتاة غضة الشباب رائعة الجمال ، لولا أن شبابها يوشك أن يكون وهما ، ولولا أن جمالها يوشك ان يكون خيالا ، تبينت شخصا حيا متحركا نضيرا ، ولكنه على ذلك لا يخلو من شىء يشبه الموت ، ومن شىء يشبه السكون ، ومن شىء يشبه الذبول . وهو على هذا كله يذكرنى بشخص كنت آلفه ويألفنى ، وكنت أكبره ويكبرنى ، وقد فقدته منذ حين ، فجزعت عليه جزعا شديداً ، وكثيرا ما سألت نفسى اتراها قد ذكرتنى قبل أن تلج باب الموت .

وانى لأنظر الى هذا الشخص الماثل ، وان هذه الخواطر لتمر امام نفسى وادعة كأنها السحاب الرقيق ، واذا انا اسمع صوتا رقيقا خافتا حلوا يسعى الى سعيا خفيا من ناحية هذا الشخص الماثل غير بعيد . واذا هذا الصوت يحمل الى تحية عذبة هى التى كنت اسمعها من صديقتى حين كنت القاها وجه النهار ، وما اكثر ما كنت القاها وجه النهار . اصبح بخير ياسيدى . فأجيب اصبحى بخير ياســـيدتى . انك تعرفنى أو تكاد تعرفنى ، انك تذكرنى وتسال نفســـك الآن كما كنت تسألها من قبل ، اذ ذكرتك حين فارقت الحياة وودعت الاحياء ، نعم ياسيدى قد ذكرتك والحت فى ذكرك ، وكلفت من يقرأ تحيتى عليك ، ولولا الحياء لكلفت من يدعوك لزيارتى قبل ان اموت ولكنى لم افعل ، ولم يعرض على ذلك احد من الذين كانوا يحيطون بسرير الموت ، على انى لست آسفة فانى لم اخسر شيئا ، لأنى لم افارق احدا ممن كنت احب لقاءهم فى تلك الحياة ، انما انا اراهم وأسمع بينهم واتحدث الى نفوسهم وأسمع منها ، وكل ما فقدته انما هى هذه الاصوات التى كنت اسمعها ، وهذه الايدى التى كنت اصافحها . وثق بأنها لا تعدل شيئا حين اقيسها الى ما اسمع الآن من احاديث الضمائر ونجوى النفوس . وما كنت لأتراءى لك الآن لولا انك اغرقت فى ذكر الخيال واستحضار الخيالات . ولست اخفى عليك انى كنت اريد حين تراءيت لك ان اداعبك بعض الشىء ، فلا تظن ان الدعابة مقصورة على الاحياء ، فقد يأخذ الموتى من الدعابة بنصيب ايضا . كنت اريد ان اتراءى لك على انى ام حصن صاحبة النمر بن تولب ، وان اشكر لك عطفك على ورفقك بى ولومك لابى العلاء . ولكنى لم استطع ان اخدعك لأنى لم اتعود خداعك اثناء الحياة . ثم لأنى انما اقبلت الى هذا المكان لألقى فى روعك رسالة كنت اريد ان تبلغها عنى ، وكنت اريد ان القيها اليك كما تلقى الرسائل الى الناس فى الاحلام ، ولكنى رأيتك يقظان تنظر فى هذا الكتاب فانتظرت لعل النوم ان يسعى اليك ، ثم رأيتك تذكر الخيال وتستحضر الاطياف فتراءيت لك ، وهل انا الا خيال او طيف ؟ لا تطل النظر إلى ولا تقل شيئا فان نظر الاحياء يؤذينى ، وان اصوات الاحياء تثقل على ، ولكن اسمع منى ولتحـــدث نفسك الى اذا لم يكن لك بد من حديث ، وانى لأعلم انك تريد ان تسألنى كيف اتحدث اليك بصوت يشبه صوت الاحياء ، واشفق مع ذلك من سماع صوتك فانا لا اتحدث اليك بصوت يستطيع غيرك ان يسمعه ، انما انت الذى يمنح هذا الصوت قوته وتشخيصه ، ولو ان فى هذه الغرفة قوما غيرك لما رأوا من شخصى ما ترى ، ولما سمعوا من صوتى ما تسمع ، ولكن اصغ الى فانى أحس مقدم النهار ، وانى أكره هذا الضوء الذى يغمر الكون حين تشرق الشمس ، والذى كنت أحبه أشـــد الحب اثناء الحياة ، والذى لم احزن على شىء حزنى على فراقه قبل أن أموت ، والذى لم اتسل عن شىء كما تسليت عنه الآن .

اصغ الى فانى أريد أن القى اليك رسالتى ، وان أنصرف عنك

(البقية على صفحة ٨٤٠)